الوسطى، ويولون أهمية كبرى لفوارق الأسلوب والأنواع الأدبية، وميلاد الأسلوب المتوسط الذي يختلف عن أسلوب التراجيديا اليونانية الفخم[١٢].

والحقيقة أن هذه البذور الواقعية لم تكن في فن المسرح، وإنما كانت في فن القصص إلى حد ما. فالمسرح لم يكن يتخذ مواضيعه من الحياة في القرون الوسطى، بل كان يتخذها من القصص الديني الذي ورد في الأناجيل وحتى الكوميديا ـ كما يؤكد الدكتور مندور ـ فإنها كانت تستهدف الإضحاك فحسب، وليس نقد الأوضاع الاجتماعية[١٣].

أما فن القصص في ذلك العصر فإنه يحتوي ـ إلى حد ما ـ على عناصر واقعية رغم ما يبدو لنا لأول وهلة من بعده الشديد عن الواقع وتصويره. فحين نفك رموز «الكوميديا الإلهية»[١٤] للشاعر الإيطالي «دانتي» نرى لوحة رائعة لتصور العصور الوسطى للحياة والثواب والعقاب وسائر المعتقدات، بالإضافة إلى ذلك النقد المر لبعض مظاهر المجتمع، كمهاجمة «كنيسة روما وفضح نفاق الرهبان وجشعهم ووضع أحد الباباوات في الجحيم، واختيار الفردوس مقراً لواحد من تلامذة ابن رشد، كان قد دفع حياته ضحية تعنت الكنيسة»[٥].

وإذا كانت التراجيديا الكلاسيكية في القرن السابع عشر لم تعكس لنا مظاهر واقعية من الحياة، بسبب التزامها بمحاكاة الآداب الإغريقية والرومانية القديمة وعزوفها عن محاكاة الواقع، وبسبب مغالاتها في التقيد بتلك القوانين الصارمة[١٥] التي وضعها أرسطو لهذا الفن، وخاصة قانون الوحدات الثلاث: وحدة الموضوع، والزمان، والمكان. أقول: إذا كانت التراجيديا الكلاسيكية كذلك، فإن الكوميديا على العكس من ذلك كانت غير بعيدة عن الواقع وأخلاق الناس يومذاك. ويكفي أن نذكر الكاتب المسرحي الفذ «موليير» الذي خلف لنا مسرحيات عدة[١٦] ينتقد فيها مظاهر سيئة من أخلاق المجتمع الفرنسي، كما فعل في «البخيل»، حيث انتقد الطبقة البورجوازية الناشئة المتكالبة على جمع المال والحرص عليه أكثر من الحرص على الأبناء والعلاقات الإنسانية الحميمة، وكما فعل أيضاً في «طرطوف»، حيث انتقد رجال الدين